الشبهة الثانية والعشرون
هداية السنة «ظرفية» لا دائمة؟!

مكر جديد يمكره منكرو السنة المعاصرون، هذا المكر وليد الحاضر، ولم يقل به أحد من منكرى السنة القدامى. وفى عرضهم لهذه الشبهة يفرقون بين دلالة السنة، ودلالة الأحاديث النبوية. فالسنة - عندهم - هى حياة النبى، التى انتهت بوفاته، يعنى أن السنة على هذا التعريف «الشيطانى» ماتت يوم مات الرسول، وبموت السنة توقف دورها فى الهداية والتوجيه؟!

أما الأحاديث النبوية، التى بين أيدى المسلمين فيتخلصون منها، كما تخلصوا من السنة، فيقولون: أنها ليست كلام النبى ﷺ، بل هى مفتراة عليه؟!

ويعودون لبيان السنة فيقولون أنها فهم «شخصى» خاص بالنبى لما فى القرآن. العمل به مقصور على فترة زمنية محددة هى حياة النبى من يوم بعثه الله رسولاً إلى يوم أن توفاه الله فدور السنة كان مرتبطا بزمن معين، وهذا هو معنى «ظرفية السنة» عندهم.

باختصار شديد: يريدون محو كل أثر قولى، أو فعلى، أو تقريرى لصاحب الرسالة ﷺ.

ويزعمون أن فهم النبى - ﷺ - للقرآن غير ملزم لغيره ممن جاء بعد من أجيال الإسلام، بل لكل جيل أن يفهم القرآن فهما جديداً خاضعا للظروف والأحوال، فما كان من السنة فى القرن السابع الميلادى فى شبه جزيرة العرب لا يصلح للقرن العشرين، ولا لمكان آخر غير شبه الجزيرة. فالزمان والمكان عاملان فى نتاج أفكار جديدة متطورة. أما الاحتكام إلى ما فهمه النبى وأصحابه من القرآن فى زمانهم ومكانهم فهذا «تحنيط للإسلام»؟!

ويدعون أن النبى وأصحابه لم يدونوا السنة والحديث لأنهم يعلمون أن

السنة والحديث مرتبطان بزمانهم ومكانهم فقط، ولا يصلحان لزمان آخر ولا لمكان آخر، لذلك تركوا تدوين السنة حتى لا يتسببوا فى إرباك من يجئ بعدهم من المسلمين؟!

هذه السواقط، وغيرها، كان أول من تولى كبرها فى العصر الحديث مهندس سورى شيوعى (محمد شحرور) من الذين درسوا فى جامعات روسيا، أيام كان الاتحاد السوفيتى يضع فى كل غرفة فى المدن الجامعية فتى وفتاة يعيشان فى الغرفة معا، وكأنهما زوجان؟! (ينظر الكتاب والقرآن ٥٤١ وما بعدها).

وردت هذه «السواقط» فى كتاب ضخم له دعاه: (الكتاب والقرآن. قراءة معاصرة) يقارب ألف صفحة من القطع الكبير، ثم صار هذا الكتاب مرجعا عندنا فى مصر - الآن - لكل أصحاب الفكر الشاذ، ومن أبرزهم منكرو السنة، الذين نواجه شبهاتهم فى هذه الدراسة.

تفنيد هذه الشبهة ونقضها:

قليل من النظر الواعى حول ما بيناه من هذه الشبهة، يريك أن هؤلاء المرجفين يركزون على أمرين:

الأول: أن السنة هى الفهم الشخصى للنبى ﷺ لما أنزل الله عليه فى القرآن، يعنى نوعا من تفسير القرآن صدر عن النبى مع حصر السنة فى أنها (حركة حياة الرسول)؟!.

الثانى: أن السنة - بهذا المعنى - لا بد أن تكون ظرفية مقصورة على مرحلة تاريخية من مراحل التاريخ الإسلامى، وهى من بدء الرسالة إلى وفاة الرسول.

هذان الأمران كانا تمهيداً أو وسيلة لهدف آخر ضخم: هو أن معانى القرآن قابلة للتطور - دائما - ولو من النقيض إلى النقيض، وأن لكل جيل حق فهم القرآن حسبما يرى وما تمليه عليه الظروف غير ملزم بفهم من سبقه للقرآن، حتى

لو كان النبى وصحبه؟! وهذا – منهم – زيادة توكيد وتأصيل لقاعدة مدمرة وضعوها وأخضعوا لها القرآن كله. وهى:

«القرآن ثابت الأصل، متغير المحتوى» يعنى أسلوب القرآن لا يغير ولا يبدل، ولكن معانيه تتغير وتتبدل من عصر إلى عصر ومن مكان إلى مكان، بل ومن شخص وآخر.

فمكر منكرى السنة هنا، ليس مقصوراً على السنة بل هو شامل للقرآن كذلك.

وهذا كله غثاء فى غثاء فلا السنة مرحلة مخصوصة من مراحل التاريخ الإسلامى، بدأت وانتهت، ولم تعد صالحة، للحياة، ولا هى غير الحديث النبوى:

فالسنة حديث، والحديث سنة، وما يقوله منكرو السنة فى هذا المجال وَهْمٌ من أوهى الأوهام.

ولا القرآن متغير المحتوى، من النقيض إلى النقيض. هذه الدعوى لو أدركها المجنون لأنكرها.

وقد أعطى شحرور نماذج لتغيير المحتوى فى مفاهيم الشريعة وقيمها ففى العبادات قال إن أقل قدر منها يرضى الله، ولو اكتفى المسلم بصلاة ركعتين فى اليوم بدلا من سبع عشرة ركعة موزعة على خمس صلوات واجبات.

وفى لباس المرأة قال إن أقل ما هو مطلوب، وأنه يرضى الله من المرأة إذا فعلته هو أن تستر «العورتين المغلظتين» ولها أن تظهر بعد ذلك خارج بيتها عارية لا تغطى شيئًا من بقية الجسد؟!

ونحا نحوه كاتب علمانى من منكرى السنة طالب بأن تعتبر الأمة احتساء الخمور والزنا أفعالاً مباحة لا عقاب ولا لوم فيها شرعا وقانونا، اقتداء بالمجتمع الأمريكى، وبخاصة فى تعامله مع فسق كلينتون – مونيكا، حيث عوتب على كذب الرئيس الأمريكى أما فسقه وزناه فلم يكونا موضع مؤاخذة فى ذلك البلد المتحضر؟!

كما فسَّر قطع يد السارق الوارد فى صريح القرآن بأنه حبس اليد وصاحبها فى السجن (ينظر روز اليوسف ١ / ٥ / ١٩٩٩ م).

إن المسألة إذن مسألة عبث، أو إزالة للإسلام كله، وليست مسألة « تحنيط » للسنة النبوية، وهى روح القرآن بلا جدال، ومفاتيح كنوزه التى لا تنفد .

إن سنة النبى – ﷺ – سواء فى ذلك القولية والعملية ليس فيها شئ قابل للتحنيط، أو العزل عن حياة المسلمين؛ لأنها مصابيح هدى فى قلوب الأمة كالروح فى الجسد .

وصلاحية السنة لكل عصر ومصر أمر لا ريبة فيه وهى ظاهرة صالحة للعرض والاختبار الآن، وفى كل لحظة، سواء أُخِذَتْ العينة من العقائد، أو العبادات، أو المعاملات، أو الأخلاق .

أى مثال من السنة، من هذه المجالات إذا نظرت فيه بوعى تجده يمزق حدود الظرفية الزمانية، والمكانية، التى يدعى منكرو السنة تقييدها بها :

خذ إليك – مثلا – قوله ﷺ :

« لا تكونوا إمَّعة، تقولون : إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا؟ ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا » رواه الترمذى فى باب البر والصلة عن حذيفة .

تأمل المعانى السامية التى تتجلى فى هذا التوجيه النبوى الرفيع أنه يدعو إلى ما يسمى الآن بـ « قوة الشخصية » واستقلالها، وأن لا تكون الأمة، ولا فرد منها عبداً للتقليد الأعمى، تعيش فاقدة التمييز والإرادة، لا بصر لها بالأمور . تجرى وراء كل ناعق، لا تملك أن تقول (لا) ولا تملك أن تقول (نعم) وإنما تسلس قيادها لغيرها، فتلغى وجودها من الحياة .

ومن كان هذا شأنه فهو فى عداد الحيوانات العجماوات المدربات على الخسف والإذلال .

ولن تستطيع الأمة أن تحدد لها مواقف خاصة بها، إلا بعد وعى وبصر بحقائق الأمور، لتعرف متى تقول « لا » ومتى تقول « نعم ».

والفرد مثل الأمة فى هذا الميدان، أما أن يكون كالريشة، تعبث بها الرياح كيف تشاء، أو يكون كالجبل الأصم، لا تنال منه عوامل المحور والقرض والتعرية.

فقل لى بربك: هل هذا التوجيه النبوى السديد، وهل هذه التربية الراشدة لم تكن صالحة إلا فى حياة النبى ﷺ، أم هى صالحة لكل الأزمنة، ولكل الأمكنة مهما تباعدت عن زمن النبوة وموطنها الأول.

إن أمتنا الآن انتابتها حالة مفزعة من الضياع، حين صارت «إمَّعة» لا موقف لها ولا رأى، حتى فى الأمور التى تراد بها هى نفسها. وقد قوَّى ضعفُها من تبعيتها المهينة لمن لا يرعى فينا عهداً ولا موثقًا.

ومثل آخر، هو قوله ﷺ:

«أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس» رواه ابن أبى الدنيا والأصبهانى هذا الحديث من جوامع الكلم كما ترى، وقد أورده النبى ﷺ فى صدر حديث جوابا عن سؤال وُجِّه إليه، ولم نذكر بقيته اختصاراً.

وهو – كما ترى – تفجير لطاقات الخير الكامنة فى أهل المروءة والفضل من الناس. وحين يتمكن هذا التوجيه فى القلوب تصبح الحياة ساحة للتنافس فى صنع الخير، ليكون صانع الخير مع الناس أحب عباد الله إلى الله، وفى شيوع الخير فى المجتمع محو للشرور والأنانية البغيضة، التى تولد الضغائن بين الناس، حتى يصبح كل إنسان حربا على الآخر، ويزول كل طعم جميل للحياة. ونسأل منكرى السنة هذا السؤال ونتركه بلا جواب، لأنه معروف.

هل هذا الحديث أصبح الآن «عملة زائفة»، أم هو روح فياضة بالتراحم والتآلف؟.

* * *